ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 07 العدد: 03(2022) ص268-277

الهوية المأزومة و تمثلاتها في الرواية العربية المعاصرة

The Identity Crisis and its Representations in Contemporary Arabic Novel

د. حامدي سامية

جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج (الجزائر)

samia.hamdi@univ-bba.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
21 اوت 2021

تاريخ القبول:
21 سبتمبر 2021

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الهوية
- ✓ الأزمة
- ✓ تشظي

الملخص:

يُعدّ سؤال الهوية سؤالا وجوديا طرح ولازال يُطرح بشكل أكثر حدة في العصر المعاصر؛ بسبب ما تفرضه حالة الفوضى والتشظي التي تسود العالم وتؤرّق الإنسان، الذي أضحى عاجزا عن الحفاظ على انتمائه الهوياتي في مواجهة تيار العولمة، والسيطرة العالمية بإرادة المحو التي رافقتها، والذي بات يهدم الشعور المتأصل بالانتماء.

تطرح الرواية العربية المعاصرة تساؤلات معقدة لذوات متعبة، تبحث عن هوياتها القلقة والمتشابكة لتفرزها عن بقية الهويات الأخرى في محاولات مُضنية تلقي بها في هوة الاستلاب والضياع والاغتراب، لا على المستوى الفردي فقط بل يطال ذلك الهويات الجمعية أيضا، بما يظهر من تصدع في وعيها وتشظٍّ في بنيتها. تحاول هذه الورقة البحثية رصد أهمّ تمثلات الهوية المأزومة في الرواية العربية المعاصرة: (الأنطولوجية، الثقافية والحضارية، الأنثوية).

Article info

Received
21 August 2021
Accepted
21 September 2021

Keywords:
- ✓ *Identity*
- ✓ *Crisis*
- ✓ *Ego*

Abstract :

The question of identity is an existential inquiry that has been and continues to be raised more sharply in modern times; it is because of the chaos and fragmentation that prevails the world and disturbs the human being, who is unable to maintain his identity affiliation in the face of globalization.

The contemporary Arabian novel raises complex questions for tired selves, looking for their entangled identities attempts to cast them into the cloak of loss and alienation, which appear to have cracked their consciousness and structure.

This research paper attempts to monitor the most important of the representations of the crisis identity in the contemporary Arab : (ontology, cultural ,civilizational, and feminine).

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تقديم

من الواضح أن الحديث عن الهوية بالمفهوم المتعارف عليه، والذي شكل ركيزة أساسية لاستقرار الأمم قبلا، لم يعد ممكنا في العصر المعاصر؛ بسبب التغيرات الكبيرة التي زلزلت نظام القيم وطرق الإدراك. وفي خضم تلاطم أمواج التغيير خلال القرن العشرين والواحد والعشرين، ظهر إلى الوجود إنسان عربي جديد تتصارع في داخله قوى التغيير وتعصف بقيمه وقناعاته. يقول الدكتور حلمي محمد القاعود " من الحقائق المسلّم بها أنّنا في قرننا العشرين نخوض عباب بحر رهيب، مليء بالتيارات الأدبية والفكرية والسياسية، وخوضنا لهذا العباب أمر ضروري بل وحيوي ليزدهر فكر الإنسان العربي وليخصب وينجب إنسانا جديدا تتكامل فيه الملامح المرجوّة لإنسان الغد على أرضنا العربية ".[1]

غير أن هذا الإنسان الجديد سيقع في مأزق خطير ينبّه إليه الناقد قائلا " بيد أنّ عملية الخلق الجديدة للإنسان العربي لا ينبغي أن تنسيه خصائصه الذاتية التي ينفرد بها عن غيره من العالمين. ولا يجوز أن تذيب هويته في هويات الآخرين ويصبح بلا هوية ولا شخصية.. مائعا وسط الزمان والمكان ".[2] هذا الذوبان والتماهي سينجم عنه تشرذم الذوات وتشظي هوياتها وهذا ما يجعل موضوع الهوية يطرح للنقاش والمساءلة، فكان ذلك إرهاصا لظهور مصطلح (أزمة الهوية)؛ إذ " يرى مرسر أنّ مسألة الهوية حين تكون مطروحة للنقاش فذلك يعني أنّها مأزومة".[3]

إنّ أهم ما يميز الخطاب الروائي العربي المعاصر إصراره على تصوير ضعف الإنسان العربي وانهزاماته وتصدّع مفهوم الهوية لديه، ومحاولة لملمة شظايا هوياته المتناثرة ضمن طروحات جديدة تعكس حالة الإنسان والوطن العربي؛ حيث أنّ "القصّ ما بعد الحداثي يحاول أن يقرأ الواقع كما هو بكلّ تشظّيه وتناقضاته، وينقل صراعات الشخصيات الفكرية والنفسية ".[4]

1. الهوية: إشكالية المصطلح:

تعدّ الهوية من بين أعقد المسائل المطروحة للنقاش؛ لما يتبناه كل طرف من مبادئ وتصورات تتناسب واتجاهه وأيديولوجيته الخاصة، إضافة إلى كونها موضوعا مشتركا بين مختلف العلوم والثقافات، وهذا ما جعل تحديدها تحديدا دقيقا أمرا مستعصيا " وتعود صعوبة التحديد إلى التنوع الكبير في العناصر الأولية المكوّنة للمسائل الاجتماعية، وهي في أغلبها مفاهيم تنطلق من التجربة المعاشة، ومن نسق التصورات والأنماط السلوكية المتنوعة، ويضاف إلى ذلك حالة الفعاليات الداخلية الخاصة بالموضوع المراد تحديده، وهي التي تفسح مجالا واسعا للدراسات والمناقشات العلمية الحادة ".[5]

تُعرّف الهوية بأنّها " مُركّب من المعايير الذي يسمح بتعريف موضوع أو شعور داخلي ما، وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشاعر المختلفة، كالشعور بالوحدة والتكامل والانتماء والقيمة والاستقلال والشعور بالثقة المبني على أساس من إرادة الوجود ".[6]

والملاحظ أنّ إشكالية مصطلح الهوية لا تنحصر فقط في اشتراكه بين تخصصات وثقافات شتى، بل يعود السبب أيضا إلى تعدّد حدوده المعجمية واللغوية. ومن بين تلك التعاريف ما يلي: " هويّة الشيء، وعينيته، وتشخّصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كلٌّ واحد. وقولنا إنّه هو إشارة إلى هويته، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك ".[7] ولعل هذا ما أشار إليه الشريف الجرجاني قبلا في معجمه، معرّفا الهوية بقوله: " هي الأمر المتعلّق من حيث امتيازه عن الأغيار".[8]

من خلال التعريفين السابقين ندرك كيف أنّ تشكّل هوية الأنا لا تتحقق إلّا بوجود الآخر وهو ما يمنحه

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

خصوصية واختلافا وتميّزا. فالهوية إذن هي حقيقة الشخص التي تميزه عن غيره.

إنّ تحديد هوية فرد أو جماعة أو مجتمع تقتضي الاستعانة بجملة من السّمات أو المعايير والعناصر(مادية فيزيائية/ تاريخية/ ثقافية/ نفسية/ اجتماعية...)إلخ وتبعا لذلك تتشكّل لدينا طائفة من الهويات على النحو التالي:[9]

- ✓ الهوية المادية: وتشمل (المورفولوجيا، الملكية، التنظيم)
- ✓ الهوية الخاصة: وتشمل (الأصول والماضي، الوضعية الحالية، نظام القيم والسلوك الخاص، القدرات الخاصة)
- ✓ الهوية الاجتماعية: تشمل (صورة الهوية في منظور الآخرين، الانتماءات، الرموز والإشارات الخارجية)

لاشك أنّه لتحديد هوية ما ينبغي الأخذ بعين الاعتبار السمات المتجانسة من جهة، والسمات الفارقة التي تشكّل خاصية التّمايز والتّميّز من جهة أخرى، فنسق المعايير الذي يُعتمد عليه في تحديد هوية ما، يُعتبر بمثابة نظام متكامل تتداخل عناصره المتآلفة والمتمايزة، لتشكيل صورة واضحة المعالم عن هوية ما.

2- سؤال الهوية وأزمة الانتماء في الرواية العربية:

يعيش الإنسان في صراع دائم مع ذاته ومع الآخر؛ بسبب ما يحيط به من ظروف شتّى ممّا يولّد لديه "أزمة هوية" و " في ضوء نظرية (إريكسون) يُنظر إلى أزمة الهوية بوصفها أزمة نمائية تنشأ عن التغيرات الفيسيولوجية وتوقعات المجتمعات...هي موقف نمائي يقتضي تجاوزه تحديد هوية الأنا، أما إذا فشل الفرد في إنجاز هذه المهمّة فإنّه يعاني من التّشتّت والارتباك "."[10]

فالهوية تتأزّم حينما ينتفي الوعي بالذات وبالوجود، لتدخل الذات في دوّامة الاغتراب، فينجرّ عنه فقدان للهوية. وهذه الحالة المتأزّمة للذّات قد ظهرت بصفة واضحة في المراحل المتأخرة من حياة الشعوب؛ إذ يذهب هارلمبس وهولبورن إلى أنّ " المجتمعات الحديثة تميّزت بالتغيّر السريع، وفي فترة الحداثة المتأخرة ازدادت سرعة التغيّر بشكل جعل من الصعب أن يحتفظ الناس بإحساس موحّد بهويتهم "."[11] وقد كان ذلك إرهاصا لتفشّي القيم السلبية بالتصدّع وانشطار الذّات الإنسانية.

لقد كان سؤال الذات العربية في علاقتها بالآخر/ الغرب من بين أهم القضايا التي شغلت الروائيين العرب في بدايات النهضة، واتخذوها موضوعا لرواياتهم. وكانت المثاقفة وسيلة للتعرف على الآخر عن قرب مما ساهم في تسريع وتيرة الوعي ومن ثم تفجير أسئلة الهوية وتناسل قضاياها وتشعّبها وبخاصة عقب نكسة حزيران 1967 ، حيث اتّخذت الرواية العربية منحى جديدا، وصارت أسئلتها أكثر عمقا وإيلاما وأكثر إصرارا على طرح مسألة الهوية والتساؤل حول الذات العربية المهزوزة وهويتها المأزومة، بسبب الهزّات العنيفة التي أيقظت الوعي العربي ونبّهته إلى حجم الأزمة التي تمر بها الأمة العربية.

ومع اكتساح تيار العولمة وانفتاح العالم تفاقمت أزمة الهوية العربية، وازدادت لهجة الرواية العربية حدّة لتبرز ملامح متناثرة لشخصيات ضائعة أعيتها الانهزامات والإحباطات المتكررة، نتيجة تشابك الأوضاع والتباسها واختلاط القيم، وأمام هذا الوضع " تصبح الهويات القديمة المتخيلة الردّ على وضع تاريخي مزرٍ، في أوضاع كهذه لا يستطيع المرء الانتماء إلى زمنه، بأن يكون جزءا من الفردنة المعاصرة، فيحاول إيجاد صورة موازية للفردانية المرذولة في مجتمعه، فيجد في الهويات القديمة... ملجأ لتحدّي هوية مختلفة، لا يجد نفسه جزءا منها، بل يشعر أنّها تضطهده، هكذا يتم إنتاج هوية مأزومة لا هي تنتمي إلى الحاضر، ولا هي تنتمي إلى الماضي "."[12]

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فكانت النتيجة أن علقت الذات العربية في متاهة ملتوية، فاستعصى عليها المخرج وفقدت طريق العودة بعد محاولات يائسة، كانت نتيجتها الدخول في حالة من اللاانتماء والتشظي وانشطار الذات المعذّبة الباحثة عن هويتها المغيّبة قسرا.

وتجدر الإشارة في هذا المقام أنّ " أزمات الهوية غالبا ما تكون من نصيب المثقفين الذين يوجدون في حالة اتّصال دائم مع أنساق قيمية متعدّدة، والذين يتوجّب عليهم إيجاد نظام متكامل من القيم، يستطيع أن يعكس وضعية التغيرات الخاصة بالبيئة ".[13] وقد كان هذا شأن المثقفين العرب، الذين عانوا من أزمة التشظي والانشطار أكثر من غيرهم من الفئات الأخرى، لعجزهم عن أداء دورهم كاملا.

تنسحب هذه الصفة على الروائيين من خلال رواياتهم، التي تعكس مأزقا حادّا في الوعي بالهوية، وهكذا كان شأن الرواية العربية وبخاصة ما صدر منها في النصف الأخير من القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، والتي انغمست في خوض إشكالية الوعي المتصدّع وأزمة الهوية للذّات العربية، في بُعديها الفردي والجماعي في مواجهة الخطر الدّاهم الذي يتهدّد هويتها بالذوبان والتلاشي.

3- تمثّلات الهوية المأزومة في الرواية العربية:

للهوية المأزومة تمظهرات عديدة ومتشعبة في الرواية العربية المعاصرة، ولما كان ا لمجال لا يتّسع هنا للإحاطة بها جميعا، فقد آثرت التركيز على تمثّلات ثلاث باعتباره الأكثر حضورا وهيمنة في النصوص الروائية.

3- 1 : انشطار الهوية الأنطولوجية: سؤال الوجود والهوية:

إن البحث عن الهوية يصبح إشكالية وجودية حين يتجه مسار الهوية نحو البحث عن الوجود والمصير، مصير الفرد المأزوم في مجتمع ممزّق حيث " يُصاب الوعي بحالة من انسداد الأفق وتضيق الخيارات أمام الأفراد، فعلى الرغم من أنّ المأساة اجتماعية إلّا أنّ فكرة الخلاص المسيطرة هي فكرة الخلاص الفردي، فيتغلغل اليأس وقلّة الحيلة والاستسلام وحتّى آليات الدفاع تصبح في هذه الحالة مهدّدة بالفشل ".[14]

فهذه الصفات التي تجنح إلى الضعف والفشل والاستسلام وقلة الحيلة ما هي إلا مؤشرات واضحة تشي بـ " وجود أزمة هوية عميقة، هوية عقيمة مُزعزعة... تعكس أزمة قلق وجودي مرعوب من كل ما حوله، ويريد التعجيل بالخلاص...يتحول العقل المصدوم في المجتمع المأزوم المشتّت إلى عقل مسدود المسارات ".[15] فالإنسان المعاصر يعيش أزمة معاناة وجودية حادة، تنبئ عن هزيمة الإنسان وإحباطاته المتكررة.

لقد اشتبك السرد بكينونة الإنسان ووجود العالم، وذلك ما برز بشكل واضح في الرواية العربية المعاصرة التي طرحت نمطا مغايرا للمألوف، وطرحا جديدا لبعض المفاهيم والتصورات، فاقتربت أكثر من الذّات واستعرضت أسئلتها الوجودية المؤرّقة، التي أعادت قراءة الواقع بتصور جديد، ينبئ عن أزمة الإنسان الجديد واغترابه وانزوائه بهويته المأزومة.

يمكن القول إنّ ما " يميّز الرواية الحديثة إجمالا هو ما كان قد نبّه إليه الناقد والفيلسوف المجري جورج لوكاتش في نظريته الشهيرة حول الرواية، من كونها تعبّر عن اغتراب الفرد ومنزلته الإشكالية ضمن المجتمع المتصدّع، الذي فقد انسجامه الطبيعي وبهاءه السحري ".[16]

وقد طرح هذا الإشكال في معظم الروايات العربية المعاصرة، متّخذا سبيلين : أولهما من خلال طرح أزمة الهوية الوجودية (الأنطولوجية) للفرد في علاقته بمحيطه. وثانيهما الأزمة الحضارية في مواجهة حركية تشكل العالم الذي تقوده الحضارة الغربية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ففي المنحى الأول المتصل بأزمة الهوية الوجودية للفرد " نجد الإشكال المرتبط بحركية الحداثة نفسها وما تطرحه من أزمة عميقة في النظر والعمل، بتقويض المرجعيات الثابتة في المعرفة وتأسيس الحقيقة على معيار اليقين الذاتي المحضنة ، ونسف النظام المنسجم والمتناغم للطبيعة وتحويلها إلى قوة فيزيائية صلبة، بحيث يصبح التحدي الأكبر هو معاشرة وجود انتفى عنه السحر.. وغاب المقدس ".[17] ففي هذا المنحى من مأزق الهوية يظهر انحسار الذات الفردية الحرة، التي تصوغ هويتها وتعلن عن كينونتها بكل وضوح وثقة، إنّها الذات الضائعة التي تبحث عن هويتها وخصوصيتها، باعتبارها كائنا مستقلا بما يملكه من وعي، وتطرح أسئلتها الوجودية التي تحرقها وتصيّرها رمادا تذروه الرياح.

لقد خاضت العديد من الروايات العربية المعاصرة في موضوع الهوية الوجودية للإنسان المعاصر، ولعلّ من أهم تلك الأعمال وأكثرها تميّزا رواية (ساق البامبو) للكاتب الكويتي سعود السنعوسي.

تدور أحداث الرواية بين الفلبين والكويت في رحلة للبحث عن الذات، بطل الرواية (هوزية الفلبيني أو عيسى الكويتي) ثمرة زواج مؤقت بين راشد الكويتي المسلم ابن عائلة الطاروف الكبيرة والخادمة الفلبينية المسيحية جوزافين، حيث يجد بطل الرواية نفسه في موقف صعب، ممزقاً بين هويته البيولوجية الطبيعية، التي تربطه بأسرة أبيه الكويتية من ناحية وبين أعراف المجتمع العربي الذي لا يقبل فكرة زواج عربي من فلبينية، ولا يعترف بما ينتج عنه من ذرية، ليعيش هوزيه في الفلبين مع والدته حياة الفقر والعوز حتى سن النضج، ثم يعود بعدها إلى الكويت للقاء عائلته الثرية بعد وفاه والده في حرب الخليج، بوجهه ذو الملامح الفلبينية والذي كان سبباً في رفضه وعدم تقبله ليعود في النهاية إلى الفلبين وليس معه سوى قبضة من تراب قبر أبيه لتذكّره بجزء من هويته المفقودة.

تطرح الرواية قضية "الهوية" بصورة مختلفة عمّا سبقها من الروايات إذ تنشطر الذات وتغدو مزيجا مركبا يحمل في التركيبة نفسها حضور الذات والآخر، بهويته الكويتية بيولوجيا ملتبسة بهويته الثانية الفلبينية ملامحا ونشأة. مع رغبة وإصرار عبثي على تقمص هوية الأب والتمسك بجذوره، غير أنّ هذا الحلم سرعان ما تحطّم لما اصطدم بجدار العادات الصارمة:

" في تلك الأيام كنت كويتيا كما لم أكن في حياتي. كنت في ذروة شعوري بالانتماء إلى هذا الوطن الذي التحفت رفات والدي بعلمه ذي الألوان الأربعة. استعدت كلمات ميرلا في إحدى رسائلها الإلكترونية: «تغلب على وجهك مثلما تغلبت أنا على وجهي . أثبت لنفسك قبل الآخرين من تكون. آمن بنفسك، يؤمن بك من حولك. وإن لم يؤمنوا فهذه مشكلتهم هم، ليست مشكلتك ".[18]

يتشظى الاغتراب في هذه الرواية إلى عدة مستويات متداخلة،(غربة روحية ودينية، غربة المكان والزمان، غربة اللغة...) وهي تنضوي جميعا تحت مظلة الذات المأزومة. ومن الواضح أن تيمة الهوية بإشكالاتها المعقدة هي التيمة الأكثر حضورا وهيمنة في الرواية بدءا من العنوان المنتقى بوعي (ساق البامبو) الذي يكرّس فكرة الجذور والهوية؛ إذ تلفت انتباه القارئ إلى ما لساق البامبو من مدلولات تنبئ بالوهن والضعف، مشيرا إلى تلك الذوات المهمشة وما (هوزيه) إلا واحد منها.

يقول هوزيه – بطل الرواية" لماذا كان جلوسي تحت الشجرة يزعج أمي؟ أتراها كانت تخشى أن تنبت لي جذور تضرب في عمق الأرض ما يجعل عودتي إلى بلاد أبي أمراً مستحيلاً؟ ربما. ولكن، حتى الجذور لا تعني شيئاً أحياناً.لو كنت مثل شجرة البامبو، لا انتماء لها، نقتطع جزءاً من ساقها.. نغرسه، بلا جذور في أي أرض.. لا يلبث الساق طويلاً حتى تنبت له جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أرض جديدة.. بلا ماض.. بلا ذاكرة.. لا يلتفت إلى اختلاف الناس حول تسميته.. كاوايان في الفلبين..خيزران في الكويت..أو بامبو في أماكن أخرى."[19] : فهذا الطرح الذي يقدمه السنعوسي لأسئلة الهوية من خلال دلالة «ساق البامبو» طرح جديد وغير مألوف يكشف عن التحولات الكبرى في الواقع العربي وفي الذهنية العربية

ولعل أهم ما طرحته الرواية في الواقع هو الأزمة الوجودية للإنسان الجديد، ومحاولاته الشاقة من أجل إدراك هويته وماهيته في الوجود، والكشف عن معنى الحياة من خلال ما يمر به من أحداث ومواقف.

3- 2: أزمة الهوية الثقافية والحضارية:

يعرّف محمد عابد الجابري الهوية الثقافية والحضارية لأمّة من الأمم بأنها " المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمّة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامّه وقدراته وحدوده...وهي كيان يصير، يتطوّر، وليست معطى جاهزا ونهائيا. وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلّعاتهم، وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما ".[20]

لقد شكّل الاختلاف والمواجهة الثقافية والحضارية مع الآخر أحد الركائز الهامة في إشكالية الهوية، فثمّة علاقة وثيقة بين الثقافة والهوية، إذ أنّ أيّ اختراق للثقافة ينجرّ عنه تهاوي حصن الهوية، ولذا عملت الأمم جاهدة على زرع وتشكيل وعي ثقافي متين بين أفرادها حتى تتمكن من التصدي لخطر ذوبان وانسحاق هوياتها.

إلا أن العصر المعاصر قد أفرز وعيا مأزوما؛ إذ فقدت النّخب الثقافية العربية القدرة على تقديم أجوبة عن التساؤلات الملحّة، التي باتت تفرضها الهوية الثقافية في ظل التغيرات الدينامية المتسارعة، التي خلّفتها العولمة والحداثة التي باتت تطرح تحديات جديدة على المنجزات الحضارية، بعيدا عن منظوماتها الموروثة التي كانت تتوكّأ عليها، وهذا ما يفرض عليها استجابات أكثر مرونة حتى لا تصاب الهوية العربية بالجمود أو الإبادة في ظل التحولات التاريخية السريعة.

وفي مثل هذا الوضع حدث نوع من "الانفصام الثقافي والحضاري" للأمة العربية، وهو " مرض يصيب الهويات التي تمرّ في مأزق الانسداد أو الخصومة، بين الخصوصية الثقافية (الأصالة) والاغتيار الثقافي (إيثار ثقافة الغير والتماهي معه) أو الاستيلاب الثقافي ".[21] وقد وصف أحد النقاد حالة الأمة العربية الإسلامية هذه قائلا: "فإنّ حصار نموذجين متناقضين من القيم يجعل العالم الإسلامي يعاني من التردّد والحيرة. فالمسلمون يقلّدون الغرب أحيانا...ويرفضون قيمه ويرتمون في أحضان الماضي كوضعية تعويضية أحيانا أخرى. فالعالم الإسلامي...لم يستطع أن يجد الحل لإشكالية الانفصام الحضاري والثقافي، وهو بذلك يعاني من جرّاء ذلك حالة شقاء مخيفة ومأساوية ".[22] وبذلك أضحت الهوية الموحّدة المستقرّة هويات مفتتة لا استقرار لها تصل إلى حدّ التناقض أحيانا.

لقد تسرّبت ثنائية (الثقافة/الحضارة) إلى الرواية العربية، التي عمدت إلى الخوض في فضاءات ثقافية وحضارية، وذلك بعد الاحتكاك بالآخر/ الغرب، وما ترتّب عنه من صراع وتوتّر يهدّد وجود العربي وهويته، فأضحت المتون الروائية تكشف من خلال بنيتها عن عناصر هذه الثنائية، التي تلعب دورا فاعلا في تشكيل بنية المجتمع العربي.

وهكذا فبعد نكسة حزيران 1967 اتّجهت الرواية العربية نحو مساءلة الهوية، وفيها برزت ظاهرة الاغتراب الحضاري والثقافي وضياع الهوية؛ نتيجة عدم قدرة البطل على تحقيق الانتماء والخصوصية. ومن خلال الرواية المعاصرة طرح الروائيون أزمة الإنسان العربي الغارق في لجّة الحداثة، بتفاصيلها وتعقيداتها المربكة، ومن خلالها أيضا برزت الهويات الجماعية المتآكلة و المتشرذمة، لتتحوّل أزمة الهوية إلى أزمة حضارية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لقد تجسّد هذا التشظي الثقافي والحضاري في روايات عربية كثيرة، ولكننا سنعرض في هذا الموضع لواحدة من أهمها ألا وهي رواية (الحفيدة الأمريكية) للكاتبة العراقية (إنعام كجه جي).

يطرح هذا النص السردي إشكالية الهوية الثقافية المتشظية، من خلال تقديم قراءة واعية للصراع الهوياتي، بين الأنا العربي (العراق) والآخر (أمريكا)، رغم ما قد يبدو من العنوان المضلّل (الحفيدة الأمريكية) من أنّ الأمر قد حسم لصالح الهوية الأمريكية التي أضحت عنوانا للجيل الجديد من المهاجرين الذين بدت عليهم ملامح التمزق واضحة.

تحكي الرواية عن زينة بهنام الساعور فتاة عراقية، مسيحية عاشت طفولتها وبداية المراهقة في العراق ثم اضطر أهلها الى مغادرتها بسبب الظروف القاسية متجهين صوب امريكا ، وتمرّ خمسة عشر عاماً اكتسبت خلالها زينة الجنسية الأمريكية وتشربت المبادئ والقيم الأمريكية لتعود الى العراق بصفتها مترجمة مع القوات الأمريكية عام 2003. لتبدأ رحلة زينة في قلقها الوجودي ومحاولة فرز هويتها الثقافية فراحت تطرح أسئلة عن مفهوم الهوية والوطنية في ظل المتغيّرات التي حدثت في العراق في تلك الفترة العصيبة، وقد كشفت من خلالها عمّا أحدثته الهجرة من شرخ في هويتها وتمزقها بين مبادئ وطنها (العراق) وقيم وطنها الثاني (أمريكا). هذه الأسئلة التي تتشاركها مع جدتها رحمة جرجس الساعور التي تتشبّث بهويتها العراقية ورفضت أن تستبدلها بأخرى مهما كانت الظروف، إضافة إلى شخصية مهيمن، أخيها بالرضاعة الشيعي المتشدّد من مقاتلي جيش المهدي، وفي وقت من الأوقات العصيبة أحست زينة أن خروجها من أمريكا كان أسوأ خطأ ارتكبته داخل الجحيم العراقي، متوهّمة أنها بإمكانها أن تعيش حالة تروّج لها الدول المسيطرة ممّا يُسمّى(المواطن العالمي)، وهو ما عبّرت عنه زينة من خلال حوارها مع مهيمن:

"يَعجب مهيمن للقادرين، مثلي، على الاستقرار في الهجرة. يُسمّينا "الذين يغيّرون جلودهم"...أحتجّ:

ـ ليس لي غير جلد واحد، لكنّه بعدّة ألوان.

ـ اسمكِ زينة لا حرباء، أمّا أنا فلا أعرف سوى الوطن الأمّ. لا يمكنني أن أتصوّر الوطن الخالة أو الوطن العمّة. أشد ما يثير سخريتي تعبير "وطن الثاني."

ـ يمكن للعالم كلّه أن يكون وطنك، ألم تسمع بمصطلح "المواطن العالمي"؟ ".[23]

فكان هذا الصراع بين هوية امريكية وبين ذاكرة عراقية تعتصر ألما. هذا الوضع الذي ولّد لديها إحساسا متناقضا بالانقسام والانشطار في انتمائها بين طرفين. تهمس البطلة قائلة:

" ورغم حماستي للحرب أكتشف أنّني أتألم ألما من نوع غريب يصعب تعريفه. هل أنا منافقة، أميركية بوجهين؟ أم عراقية في سبات مؤجّل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في أرض العدو من سنوات؟ لماذا أشعر بالإشفاق على الضحايا...؟ كنت أنكمش وأنا أشاهد بغداد تقصف وترتفع فيها أعمدة الدخان بعد الغارات الأمريكية ".[24]

غير أنّ هذا الوضع قد ولّد لديها هوية مأزومة ناتجة عن نقص في الانتماء الهوياتي للأصول، وهي حالة تشترك فيها زينة مع جيل كامل من المهاجرين العرب وهذا ما أدّى إلى خلق ظاهرة (الغربة الثقافية)" وهي حالة يجد فيها الفرد نفسه أو الجماعة أو المجتمع داخل غمار حياة أخرى أو ثقافة أخرى تختلف عن ثقافته الأصلية أو عن حياته المعهودة. ومن هنا يُنظر إلى ذلك الإنسان بوصفه مهاجرا ثقافيا".[25] تلك الغربة الثقافية التي تنتج عن الاستلاب الذي تفرضه الثقافة المسيطرة عالميا.

3 - 3: قلق الهوية الأنثوية:

يمكن القول بأنّ الهوية الأنثوية " تعبير عن الصورة المترسخة في الأذهان والظاهرة المتكرّرة في الأجيال، أنّها المتدنّية، المهمّشة، الناقصة، الخاضعة لمبدإ قوامه الرجل، المحرّمة من المشاركات العامة في المجتمع باسم ناقصات العقل، ومثيرات الفتنة والشهوة ".[26] لقد التبس مفهوم الهوية الأنثوية بجملة من التصوّرات السّلبية التي تجرّد المرأة من هويتها الحقيقية، وهذا ما جعل المرأة تنتفض وترفض هذه الصورة النّمطية لتنشأ تنظيرات نسوية ترى في الهوية النسوية " أنّها ماهية تشكّلت بعيدا عن

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحقيقة الذاتية المتأثّرة بالواقع، والتي رسمها الأنا الذكوري المتعالي، ليُبقي بذلك هيمنته وخضوع الآخر له ".[27]

وبذلك اتّجهت الهوية الأنثوية نحو وعي ذاتها وإثبات هويتها الخاصة، بعيدا عمّا فُرض عليها من رؤى مجحفة، إذ أنّ " فحصها وتحديد طبيعتها وشروط تكوّنها، كان الأصل الذي منح النسوية موضوعا خصبا ومشروعا للبحث، وقد أنتج كلّ ذلك كتابة أنثوية تنهل سماتها من تلك الهوية، وكان لمفهوم الكتابة الأنثوية الفضل في تحويل النقاش من البحث عن الكاتبات أنفسهنّ إلى كشف الأسباب وراء التحيّز ضدّ النساء ".[28] تلك الكتابة النسوية التي لا تقف عند حدود الأنا الأنثوية الفردية بل تتجاوزها إلى الهوية الجماعية للأنثى.

لقد وجدت الأنثى في الكتابة الروائية مجالا خصبا لإثبات ذاتها الأنثوية، تكشف من خلالها عن مرارة شعورها بالاغتراب والقهر من الممارسات السلطوية المتعسّفة في حق كيانها ووجودها، ومحاولة هدم تلك السلطة الأبوية والتسلل خارج تلك البوتقة الخانقة، باحثة عن ذاتها وكينونها بعيدا عن الصورة النمطية التي رسمها لها الكُتّاب قبلا. فتحاول الروائية إعادة بناء جدران ذاتها المتصدّعة، فتطرح السؤال الوجودي الذي بات يؤرّقها: من أنا؟ لتبدأ رحلتها في البحث عن ذاتها الضائعة، سالكة سبيل الاغتراب وكاشفة في الآن ذاته عن القلق الذي يكتنف هويتها لتظلّ أسئلتها ضمأى يُعوزها الجواب الذي يشفي غليلها.

يقول عبد الله الغذّامي: " ويبقى حال المرأة مع الكتابة، حيث جاءت لتكون هي المؤلّف وهي الموضوع وهي الذات وهي الآخر، وإذا ما كتبت المرأة عن المرأة، فإنّ صوت الجنس النسوي هو الذي يتكلّم، من حيث أنّ الكتابة ليست ذاتا تميل إلى فرديّتها، ولكنّها تميل إلى جنسها، وإلى نوعها البشري، والذات هنا هي ذات أنثوية تُحوّل نفسها إلى موضوع، وتُحوّل حُلمها إلى نص مكتوب، وتجعل كابوسها لغة ".[29] وفي نفس السياق يذكر الدكتور عبد الله إبراهيم أنّ " الفكر النسوي يروّج لكتابة أنثوية تكون المرأة مركزها، فيتشكّل العالم من منظورها، وذلك يقتضي اختيار لغة خاصة تعتمدها في تمثيل نفسها وعالمها. لكن لا يقصد بالهوية الأنثوية وبالكتابة الأنثوية الاقتصار على ذات المرأة فقط، إنّما زحزحة الهيمنة الذكورية المتغلغلة في الثنائيات المتضادة السائدة: الرجل/ المرأة، العقل/ العاطفة، القوة/ الضعف...".[30]

وبذلك يمكن القول بأنّ الكتابة النسوية ليست لعبة لغوية كما قد يتراءى، ولكنها عنوان للهوية ومحاولة إثبات للذات الأنثوية ولملمة شظاياها المتناثرة، بل هي جسر لبلوغ الحرية " فالكتابة إذن تفجير للمكبوت والمخفي، فالمرأة من خلال مختلف أشكال كتاباتها الجسدية والرمزية تستدعي المكبوت المتراكم عبر الزمن لتُعلنه في حوارها- صراعها- مع الرجال ".[31] وفي هذه الحالة يتحوّل البحث عن الهوية الأنثوية إلى مواجهة عنيفة ضدّ السلطة الذكورية وسلطة المجتمع، وتصبح الرواية ساحة للمعركة واللغة سلاحا تدافع به عن وجودها.

من نماذج السردية النسائية الجريئة نذكر رواية (امرأة من طابقين) للروائية السورية هيفاء بيطار.

بطلة الرواية شابة مسيحية تدعى نازك عاشت في أسرة متدينة ومثقفة، حبّها الأول كان لطالب جامعي يكبرها بسنتين التقت به في اجتماعات الجمعيات الدينية، لكنه لم يبادلها الحب لأنّ اختار طريق الحب الإلهي، لتكون هذه "أوّل خيبة عاطفية تعيشها، ممّا ولّد لديها رغبة جامحة في السعي وراء شهواتها الجسدية، مظهرة رغبتها في أن تعيش تصالحا بين جسدها وروحها وأن تطلق الحرية لكليهما على حدّ سواء، رافضة قيم المجتمع وتقاليده، من خلال إقامة علاقة عاطفية وجسدية مع الشاب المسلم صفوان، غير أنها قطعت علاقتها به وقبلت الزواج بطبيب مسيحي مقيم في باريس. لتصطدم بخيبة أخرى نتيجة خيانته، فتعلن تمرّدها مرة أخرى بأن تردّ الخيانة بمثلها، وظلّت علاقتها بزوجها مهزوزة مضطربة، لتعود لزوجها ثانية ويرزقان بطفل سرعان ما اختطفه الموت مما دفع بنازك إلى اتخاذ قرارها النهائي بالطلاق والعودة إلى وطنها لتبدأ حياة جديدة متحرّرة وبخاصة حينما اكتشفت موهبتها ورغبتها في الكتابة والشهرة، حتى ولو كان الثمن جسدها، غير أنّها في فترة ما

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

استفاقت وأعلنت تمرّدها ورفضها مواصلة امتهان كرامتها الأنثوية واستغلال جسدها، لتعلن انتصارها وتحرّرها ونقاءها.

يعدّ الجسد التيمة الأكثر حضورا في رواية "امرأة من طابقين" فهو المحفز السردي الذي تنتج عنه باقي البنى السردية وتدور في فلكه. الرواية تعرض لهوية أنثوية مهزوزة قلقة، تبحث عن ذاتها عن طريق إعلان تمرّدها على ما تراه عوائق تثبط عزيمتها وتمنعها من تحقيق هويتها بعيدا عن رقابة الثقافة الأبوية الذكورية.

فالبطلة نازك الكاتبة الباحثة عن الشهرة بأي ثمن، والتي ترفض الفصل بين روحها وجسدها ،تحاول أن تتحرر ممّا رأته عُقدا شرقية فأدخلها ذلك في دوامة الصراع لا مع القيم والمنظومات المكرّسة لها فحسب، بل مع نفسها أيضا، مما أدى إلى انقسام الشخصية وانشطارها إلى هويتين متناقضتين: نازك المتصالحة مع نفسها/ ونازك المتمردة فالأولى منهما "كانت تشعر بحزن ثقيل وهي تحسّ بانقضاض الظلم الكبير عليها ،هي الخاطئة التي لم تخطئ، كان عليها كل صباح ومساء أن تقف بخشوع وتتلو الصلاة الربانية وتستغفر الله عن ذنوبها".[32] أما الثانية التي راحت تبرّر تصرفاتها السلبية بالحرية الشخصية إذ ترى أنّه قد " نجحت في التحلل من كل عفن الماضي، من عفن التربية الساذجة ، عاشرت حبيبك المسلم ، وتزوجت بذكاء بعد أن أجريت عملية إعادة العذرية ، برافوا هكذا تتصرف الفتاة الذكية، وحين أهملك زوجك، اتخذت عشيقا تونسيا تمتعت بين ذراعيه ،وندمت كونك لم تمدي جسور علاقة وثيقة مع الفرنسي ،أظن اسمه غيوم ...".[33] تلك هي نازك الشخصية المثقفة التي تحمل أمزجة مختلفة، استطاعت تجسيد الأنا الممزقة والهوية المتناثرة بكل جرأة.

غير أن هذا الشرخ الذي أصاب هوية البطلة الأنثى المتذمّرة، قد التأم في النهاية لتتصالح الشخصيتان: " أتأمّل زيف المشاعر الكثيرة التي كنت أعتقد أنها مشاعري، وضلال الأفكار العظيمة التي كنت أؤمن بها وأعتقد أنّها أفكاري، أدركت الحقيقة متأخّرة ربع قرن على الأقل...لكنّي الآن حرّة كغيمة، نقية كدمعة...امرأة حرّة ونقية تصالحت مع نفسها ومع العالم، ولم تعد تشعر كما كانت تشعر دوما بأنّها امرأة من طابقين ".[34]

وبذلك يمكن القول بأنّ "امرأة من طابقين" رواية تعالج هوية المرأة ومصيرها في عالم متحول وما تبع ذلك من توتر في علاقة المرأة بنفسها وبعالمها، وهي محاولة للتمرّد ضد واقع اجتماعي وثقافي قامع، وسلطة دينية وذكورية إضافة إلى هَيْمنة العادات والتقاليد. وهي إلى ذلك تفصح عن الهوية الهشة للأنثى. التي تحاول إيجاد هويتها بعيدا عن الصورة النمطية التي رسمتها لها الثقافة الذكورية سلفا.

ختاما

يمكن القول بأن رحلة البحث عن الذات العربية المأزومة، الفردية منها والجماعية، تجسّدت في نصوص الروائيين المعاصرين التي راحت تسائل الوجود والهوية بشتّى تمظهراتها ، عبر طرح قضايا علاقة الأنا بالآخر، الاستلاب والاغتراب، الإقصاء والتهميش والمسكوت عنه والمُغيّب... وما نجم عنها من هويات ضائعة، متشظية، ذات بنيان متآكل ومتصدّع يكاد ينهار من جرّاء هيمنة تيار الحداثة والعولمة الذي أحكم قبضته وفرض النموذج والهوية الغربية، وطمست على إثره الهوية العربية أو كادت.

لقد طرحت الرواية العربية المعاصرة إشكالية الهوية على مستويات عدة منها:

- ✓ الهوية الأنطولوجية وانشطار الإنسان العربي المعاصر، الذي أصبح يعيش أزمة معاناة وجودية حادة؛ بسبب ما أنتجته التطورات المتسارعة من تمزّق للمجتمع وتأزّم للوعي العربي، فاتجه صوب التساؤل عن الوجود والمصير باحثا عن هويته.
- ✓ أزمة الهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية، بعدما فشلت النّخب على تقديم أجوبة عن التساؤلات التي تفرضها العولمة والحداثة، وبات الخطر يتهدّد الهوية العربية بالذّوبان أو الجمود، ومن ثمّ الدّخول في حالة انفصام ثقافي وحضاري.
- ✓ الهوية الأنثوية والقلق والاغتراب الذي اعتراها في بحثها عن ذاتها، بعيدا عن الوصاية السلطوية الذكورية، والصورة النّمطية التي رُسمت لها سلفا.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

إن الأسئلة التي تطرحها الرواية العربية المعاصرة حول الاغتراب الوجودي، الثقافي والحضاري وقلق الهوية الأنثوية تسعى إلى محاولة إعادة التوازن إلى الذات العربية، التي اختلّ توازنها وشارفت على السقوط والانسحاق، ولا يتأتى لها ذلك إلا بالتعامل بمرونة وبفكر واع مع جدلية الثابت والمتحول في عناصر وقيم الهوية، مع المثاقفة الإيجابية مع الآخر/ الغرب والتي تضمن لها خصوصية هويتها.

الهوامش والإحالات:

[1] - حلمي، محمد القاعود، (1987)، موسم البحث عن هوية، دراسات في الرواية والقصة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 10

[2] - المرجع نفسه، ص 10

[3] - مختار، مروة، ستيوارت هول وتشكّل الهوية الثقافية، مجلة الفيصل، 1 مايو 2019 ، موقع إلكتروني:

https://www.alfaisalmag.com

[4]- جمعة ، مصطفى عطية ، (2011)، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الهوية، الوطن)، عمان، الوراق للنشر والتوزيع، ، ط 1 ، ص 40

[5] - ميكشيللي، أليكس ، (1993)، الهوية، تر: علي وطفة، دمشق ، دار الوسيم، ، ط 1 ، ص 16

[6] - المرجع نفسه، ص 15

[7] - صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (1982)، ج 2 ، بيروت، لبنان ، دار الكتاب اللبناني، ، د ط ، ص 530

[8] - الجرجاني، الشريف ، (1987)، معجم التعريفات، بيروت ، دار عالم الكتب، ط 1 ، ص 314

[9] - ينظر ميكشيللي، أليكس، الهوية، ص 21

[10] - الجزار ، هاني ، (2011)، أزمة الهوية والتعصّب، دراسة في سيكولوجية الشباب، الجيزة ، مصر، هلا للنشر والتوزيع، ، ط 1 ، ص 16

[11] - وهولبورن، هارلمبس ، (2010)، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دمشق، سوريا، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 ، ص 97

[12] - الزين، سمير ، استجابات الهوية المهدّدة، العربي الجديد، 6/11/ 2020 موقع إلكتروني: www.alaraby.co.uk/opinion/

[13] - ميكشيللي، أليكس ، الهوية، ص 144

[14] - رضوان، سامر جميل ، الوعي المأزوم، رؤية في تمزّق الهوية، 2020/6/23 ، ص11 ، موقع إلكتروني:

https://arabixiv.org

[15] - المرجع نفسه، ص 12

[16] - ولد أباه، السيد ، الرواية الجديدة وسؤال الهوية، الاتحاد، 2021/4/12 ، موقع إلكتروني:

www.alittihad.ae/opinion/

[17] - المرجع نفسه

[18] - السنعوسي، سعود ، (2012)، ساق البامبو، بيروت، لبنان ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ، ط 1 ، ص 363 . 364

[19] - المصدر نفسه، ص 94

[20] - الدسوقي، منى ، اللغة والهوية، تحديات الهوية بين تغريب اللغة وتعريبها، الحداثة، ع 192/191 ، ربيع 2018 ، ص 395

[21] - عساف، ساسين ، أفكار في الهوية، الهدف الإخبارية، 2018/3/21 ، موقع إلكتروني:

https://hadafnews.ps/post/39453/

[22] - ميكشيللي، أليكس ، الهوية، ص 137

[23] - كجه جي، إنعام ، (2009)، الحفيدة الأمريكية، بيروت، لبنان ، الجديد ، ، ط 2 ، ص 144

[24] - المصدر نفسه، ص 23

[25] - ميكشيللي، أليكس ، الهوية، ص 156

[26] - العنزي، سامية ، الهوية الأنثوية، وجهة نظر نسوية، 2017/1/29 ، موقع إلكتروني:

www.lahaonline.com

[27] - المرجع نفسه

[28] - إبراهيم عبد الله ، (2011)، السرد النسوي: الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية والجسد، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1 ، ص 101

[29] - الغذامي، عبد الله محمد ، (2006)، المرأة واللغة، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي للنشر، ط 3 ، ص 210

[30] - إبراهيم، عبد الله إ، السرد النسوي: الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية والجسد، ص 101

[31] - أفاية ، محمد نور الدين ، (د. ت)، الهوية والاختلاف (في المرأة، الكتابة والهامش)، الدار البيضاء، المغرب، أفريقيا الشرق، ص 35

[32] - بيطار، هيفاء ، (2006)، امرأة من طابقين، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1 ، ص 27

[33] - المصدر نفسه، ص 201

[34] - المصدر نفسه، ص 202 -203

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)